

الفصل السادس

obeikandi.com

عالم الغيب والشهادة

١ - علم الله تعالى :

الله تعالى عليم من ذاته ، فعلمه ليس مكتسباً ، فهو علم الأقدار والأمر قبل أن يراها ، وسجل علمه بالأقدار التي يريد أن يظهرها باللوح قبل أن يخلق الخلائق بخمسين ألف سنة .

فيشمل علمه بالأقدار الأكوان من المجرات والكواكب حتى الذرات فما دونها وخصائص الأشياء وارتباطاتها ببعض وسيرها وحركتها ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ^(١) [يونس: ٦١] .

كذلك سجل في اللوح الحوادث وتعلقاتها وأحايين خروجها يظهر ذلك للملائكة ﴿ فَالْمُدْرِتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥] ؛ ليكون لها منهاج عمل تقوم به حسب تخصصاتها .

ففي النصف من شهر شعبان تُنزلُ أقدار العام كله ، ما سيجري وما يكون من أقدار الأرزاق والأقوات ومن حياة وممات للخلائق ، وتُفصل بدقة حتى تطل الجنين في بطن أمه إذا نفخت فيه الروح ؛ لتكتب رزقه وعمره وشقي هو أم سعيد .

وقد نزل القرآن الكريم إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان ، حملة الروح الأمين جبريل عليه السلام مُنْجِماً حسب الحوادث والمناسبات بما يلائم الحال لينزل على قلب رسول الله محمد ﷺ .

٢ - فكتابة الأقدار قسمان :

أ - آجال محددة لمخلوقات مقدرة هي أقدارهم وفرصهم ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

ب - أهل الجنة وأهل النار من علمه بهم .

فالآجال المحددة كقول أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها: اللهم متّعني بزوجي رسول الله ﷺ وأخي معاوية وأبي أبي سفيان ، فقال عليه السلام: «لقد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة ، لن يعجل الله تعالى شيئاً قبل أجله عن أجله . . . ولو كنت سألت الله تعالى أن يعينك من عذاب القبر وعذاب النار كان خيراً وأفضل» .

فأم حبيبة أخطأت في معرفة الثابت من المتحرك ، فالثابت الذي حدده الله تعالى إذ قدر مقادير الخلق قبل خلق السموات والأرض لن يزداد فيه شيء ولن ينقص منه شيء ، أما المتحرك والتابع لحرية الاختيار والذي كشفه تعالى علماً وليس هو الذي قدره فرضاً فهو أعمال الخلق واختيارهم للحق وسيرهم عليه وطلبهم الرحمة والنجاة من العذاب ، ومع أن هذا علمه تعالى كشفاً وليس مفروضاً إلا أنه يطابق في واقعه ما علمه الله تعالى ، وهذا من دلائل عظمته تعالى التي تتبع ألوهيته ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد: ٢٢] (علمه ربنا من الأزل ولم يقدره) فسجل في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] .

فالتطابق بين علم الله (الكشف وحقيقة عمل العبد) بعد المعالجات بالمصائب والشدائد حسب ما يحتاج واقع حال العبد ، فتطابق هذا المتحرك بحرية الاختيار للعبد مع علم الله الأزلي عن معرفته بالنفوس وما سيكون مصيرها ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] ، إلا أنه أعظم شيء في التوحيد مع اشتماله على متغيرات عظيمة: حالات نفسية العبد ، وحالات نفسية العباد في مجتمعه ، والأزمة والأمكنة هذه التحركات ، وكل منها يدخل فيها الاختيار ، إن هذا على الله يسير ، فما على الإنسان

إلا التفكير في هذا؛ لتسجد نفسه الله تعالى تعظيماً على علمه وعلى رحمته وتدبيره لأُمور الخلائق.

- علم ما سيكون وقدر مقادير الخلق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف عام.

إن أول ما خلق الله تعالى: القلم ، وقال له: اكتب ، قال: يا رب وما أكتب؟ ، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.

- كتب علمه في اللوح المحفوظ: ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل: ٧٥].

- أنزل به ملائكته: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . . . ﴿ [القدر: ٣-٤].

- كتابة أقدار الجنين في رحم أمه (عمره ، رزقه ، شقي أم سعيد..).

- يُنَزَّلُ الوحي بإذن الله تعالى؛ ليلبغ الرسول الكريم كلام الله تعالى (إن الله يقرئك السلام ويقول..) ﴿ وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا . . . ﴾ [الشورى: ٥١].

- الزمان والمكان بيد الله فالحاضر والماضي والمستقبل عنده سواء ليسوا غيباً بالنسبة له بالماضي ﴿ وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ . . . ﴾ [البقرة: ٣٥] ، والحاضر ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ [التوبة: ٢٦] ، وفي الآخرة ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ [الأعراف: ٤٦] ، و﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

٣ - نزول الأقدار:

وهكذا تنزل الأقدار والحوادث بالأحايين والشكل لتناسب ما هو واقع الظروف على الأرض للناس المحددين ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢] ، يسير تطابق الأقدار في اللوح مع ما يناسب حال خروجها والحاجة إليها وجعلها ابتلاء لأحوال العباد المراد ابتلاؤهم.

- كما يتضمن اللوح المحفوظ نصيب كل إنسان من عقوبات ومصائب (من كيد أو ابتلاءات أو إضلال) يتناسب مع مستوى المخالفة أو المعصية خاصة وأن الدنيا ليست دار جزاء وإنما دار ابتلاء ﴿وَلِئَلَّا تُؤَفَّفُوا عَنْ جُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فهي إنما قدر من التشجيع أو التنبيه أو الردع ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧].

فإذا أذن الله تعالى بإظهار الأقدار أو الحوادث في حينها المحدد ليعلم ذلك من قبل الملائكة الأعلى.. ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعاً فصار لها صوت صلصلة (كالمطرقة على النحاس) فإذا فُزِعَ عن قلوبهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ [سبا: ٢٣] فتبلغه الملائكة المختصة .

كذلك من العلوم المسجلة في اللوح المحفوظ والتي تخرج مطابقة لحال العبد الذي اختار سلوكه فآمن أو أعرض بمحض اختياره بعد أن سجلت عليه الحَفَظَةُ أعماله وتوبته وعودته فأثبتت ما عمل ومحت ما تاب بعد أن تلقى من الله الرحيم من المؤثرات (علاجات لنفسه أو هدايات لتحفزه على السير على هدي الرسول ﷺ) ، والمحاولات مستمرة معه؛ لأن ربي شديد المحال ، والنتيجة التي سيختم للعبد بها إما للجنة أو للنار.

ويستمر هذا التطابق بين علم الله المودع في اللوح (هو العلم الكاشف) وما ختم للعبد من أعمال بعد كل المعالجات والتأثيرات .

هذا العلم الجامع للأقدار والحوادث من الثواب التي لا تحيد وعلم النفس وعلاجاتها وتبديل أحوالها وما يُمحي من أعمال لها بتوبتها وما استقر عليه حالها ، هذا العلم المتأثر بحرية اختيار العبد هو الذي عجزت عقول بعضهم عن استيعابه .

فمن لم يتنسَّم العظمة الإلهية في إدراك علم الله الكاشف هذا ، هو الذي وقع في الحيرة والضلال ، فتارة ينسب إلى الله تعالى الجبر ، وأخرى ينسب إليه تعالى أنه يجهل ما سيكون عليه عبده قبل أن يختم له بعمله ،

ولذا اعتبروا سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ . .﴾ ليست معقولة ولا مفهومة بل أنكروا نزولها ، وآخر أنكر قول الله تعالى في الحديث القدسي : «قبضة إلى الجنة ولا أبالي وقبضة إلى النار ولا أبالي» . فاعتبر ذلك أن الله حكم بالجبر على عبده بالجنة أو النار ، وآخرون أنكروا حديث أن الملائكة تكتب للجنين عمره ورزقه وإن كان شقياً أو سعيداً ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِيكَنَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩] اصطفاهم بعلمه الكاشف أنهم أهل للرسالة ، وقبول دعوته وتبليغها .

إذا علم الله تعالى يشمل على :

أ - ما أنزله في كتابه . ب - الذي علمه خلقه . ج - الذي استأثر به في علم الغيب عنده ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۚ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧] .

فالذي يظهره على رسوله لإبلاغه لعباده ويكلف به ملائكة ترصد تبليغ ما أمر به رب العالمين .

- علم الغيب هذا يطابق الواقع على الأرض في حينه ليعلم الصابرين الصادقين ، الذين آمنوا وليعلم الكافرين والمنافقين .

- الخير والشر :

هناك خير موجود مطلوب استمرار وجوده ، وخير مفقود مطلوب وجوده ، وهناك شر موجود مطلوب رفعه (إبعاده) ، وشر مفقود ومطلوب عدم وجوده (إبقاؤه في العدم) ، وهذا ما تبينه الآية ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۚ رَبَّنَا وَآئِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣ - ١٩٤] .

ومن دعائه ﷺ «اللهم إنا نسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمنا وما لم نعلم، ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم» .

- والشر سببه إما من ذات العبد (بما كسبت يده) ، أو خارج عن العبد

وله منتهى ، فالذي من نفس العبد يزول بالتوبة ، أما ما كان من خارج العبد فبالصبر عليه ويكون فيه ترقية للعبد وتطهير له . والشر لا يدخل في شيء من صفات الله تعالى ، وإن كان في ظاهره شراً (للإنسان) فهو متعلق به وقائم به مع أنه من مفعولات ربنا المنفصلة (فالله خالقه وخالق الخير) . والشر لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً وليس وصفاً ولا فعلاً من أفعاله . وتفصيل ذلك : أن الشر يقسم إلى : شر بسبب عدم وجود الخير فيه والأسباب المفضية إليه ، وشر محض (مطلق) فهذا لم يخلقه الله تعالى ، ومن دعاء الرسول ﷺ «ليكن وسعديك والخير بيدك والشر ليس إليك» . فالشر ظلم ؛ لأنه وضع الشيء في غير محله .

والشر إذا كان في محله فلم يعد شراً ، فجبهة الشر فيه إضافية ، فالعقوبات الموضوعة في محلها هي خير في نفسها وهي شر بالنسبة لمن وضعت فيه) وكذلك النفوس الشريرة وجودها خير ولكن إذا انقطعت عن الخير صارت شراً (أي إذا تركت وحدها تتحرك خلاف الخير) ، أما إذا أعينت بالعلم والإلهام تحركت إلى الخير .

- وينسب الخير إلى الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢] .

- وقد ينتسب الشر إلى :

أ - سببه كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ، أو قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] .

ب - أو يذكر الشر ويحذف فاعله ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠] .

ج - وينسب إلى الله كمشيئة وليس كفعل ، فهو عين الخير والحكمة ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] ، فالتدمير كمشيئة نتيجة فسق المترفين بعد أن حقَّ عليهم القول .

- والاستعاذة من الشر تكون :

١ - من شر كل مخلوق فيه شر ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ٣-٥] .

٢ - ومن شر مَنْ في الدنيا والآخرة : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال .

٣ - ومن شر شياطين الإنس والجن والسباع والهوام والماء والهواء والنار (اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها) .

- فانهدام الإخلاص لله يسبب سلسلة من الذنوب قد توصل إلى الفجور تبدأ بارتكاب السيئات ثم المعاصي ، والعبد لا يحس بها ؛ لأنها توافق شهواته إلى أن تقام عليه الحجة ﴿ فَلَمَّا دُسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً . ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

- والظالم والفاجر يرى ظلمه وفجوره بنور الله قبحاً ولكن الشيطان يزين له الشهوات فترفع عنه رؤية القبح فيرى ذلك حسناً ؛ لأن الكشف عن القبح بالنور الإلهي ، فإذا حجب وصار في الظلمات انقلبت الرؤية ﴿ أَفَمَنْ زِينَ لَهُمْ سُوءُ عَمَلِهِمْ فَراءَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يَصِفُ لَهُمْ شَاءَ ﴾ [فاطر : ٨] ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١١] .

فالنفس شفاقة كالزجاج ، يُرى ما خلفه على حقيقته إن لم يكن ملوثاً ، فإذا تلوث وطمس بالأوساخ لم يعد يرى ما خلفه بل صار كمرآة لمن ينظر إليه .

- ف ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ . ﴾ [البقرة : ٢٥٧]

- وحجة الله قائمة بالرسالة ، فانطماس الفطرة عدل من الله وعقوبة على الانحراف ، وتزيين الشيطان إغواء وظلم وهو سبب خارج عن العبد .

أما السبب الداخِل فيه العبد هو حبه أو بغضه أو إعراضه .

- والله تعالى خالق الجميع والكل بمشيئته وقدرته ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُم﴾ [الأنعام: ١٤٩] .

- والمعصوم مَنْ عصمه الله بصدقه والمخذول مَنْ خذله الله بإنكاره وإعراضه وشقاوته ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، حسب طلب الإنسان للهداية ورغبته فيها .

- والصحبة لها دور تلعبه في التأثير سلباً أو إيجاباً في سلوك العبد تصديقاً أو إعراضاً قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨] ، ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] .

- ولمجرد أن يعتمد الإنسان على غير الله فيضع فيه ثقته أو يحبه ويعظمه ، فالله تعالى يضلّه عنه ويظهر له ضعفه أو يضعه في مأزق؛ ليجد من كان يعتمد عليه قد تركه ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] .
- والهداية من الله تعالى لمن طلبها (فاستهدوني أهدكم) .

ومراحل الإضلال للعبد:

- تبدأ بالشعور بالضيق والوحشة ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] لأنه خالق فطرته .

- تتكاثر عليه المشكلات والمصائب فلا يكاد ينتهي من مشكلة حتى تبادره أخرى ، وهكذا (فكل مخالفة تكون سبباً لأخرى) وهكذا .

- ينوء بتحمُّل تبعات أعماله المخالفة ، ويشعر بالضيق .

- يطلب المعونة من الذين كان يعتمد عليهم ويثق بهم فلا يجد أحداً .

- يمقت الحال الذي هو فيه .

- يفتش عن مخرج وقد انسدت أمامه الأبواب والسبل ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ .﴾ [الإسراء: ٦٧] .

- يشعر بالذنب وعاقبة المخالفة فيندم على ما فرط .

- ثم يسلك باب التوبة (والتوبة هنا مشيئة من الله تعالى) ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِسُتُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١١٨] ، فتاب عليهم قدرأ ومشية؛ ليتوبوا مشيئة منهم ليزهدوا في المخالفات ويطلبوا رضا الله . وهكذا فالعلاج لمقترف المعاصي المفرط على نفسه: الندم والتوبة ، ومن الله تعالى إذا علم صدقه المغفرة ، وباب التوبة مفتوح والله تعالى لا يرد سائلاً للتوبة ولا لغيرها . والصدقة دليل صدق العبد تطهر القلب مما علق بالإنسان من آثام ، وفي الأثر: بادروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها .

﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] ، يعذبهم إذا لم تخلص توبتهم ، أو يتوب عليهم إذا أخلصوا ، ﴿وَأَخْرُوتَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] ، شعروا بالخطأ لكن توبتهم وندمهم ليسا خالصين فقدموا أعمالاً صالحة يرجى من الله قبولها؛ لتمحو السيئات وتطهر قلوبهم .

والمنافقون الذين ظاهرهم الصلاح وقلوبهم مسودة لم تخل من حب المعصية بل حتى اقترافها ، فهؤلاء ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١] ، تعذيب نفسي بعدم نجاح كيدهم وتعذيب نفسي بفضح أمرهم في المجتمع وإهانتهم ومن ثم لهم عذاب الآخرة .

- وأما الكفار المعاندون فليس لهم دواء إلا الجهاد (ليكون الكي آخر الطب) ، ﴿فَتَلَوْتُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] ، فذهاب غيظ قلوبهم بنصرة الإسلام وهزيمتهم فيذلو وبالتالي لم يعودوا يفكرون بالعداوة بل بالدين أهو حق أم لا؟ فيعذب الله الكافرين بالجهاد ﴿... ثُمَّ يُعْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٣] .

والكفر والشرك ينافيان الفطرة وهي التوحيد لذا لا دواء لهما إلا الجهاد . (باللسان واللسان) .

- إن معالجة النفس الإنسانية تربية من رب العالمين بدأت حين وقوعها بالضلال وحتى إيصالها إلى الهداية أو انقطاع الأمل بصلاحها ليس بمقدور غير رب هذه النفس ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]؛ وذلك لأنه تعالى:

١ - عالم بالنفس ﴿أَلَعَلِمْ أَحْيَرُ﴾ [التحریم: ٣] وأمراضها وأدويتها.

٢ - عالم بما يحيطها من أقدار ودرجة التأثير المتبادل بينهما.

٣ - أنه هو الحكيم العليم المتصف بالرفقة والرحمة ، وهو اللطيف يعالج مُتَّئِداً وبلطف ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] دون أن يفرض عليها الجبر وهي في موقع الاحترام والاختيار ، فهذا العلم الأزلي الذي يعرف النتائج وهو الذي يتطابق مع نتائج المعالجة تطابقاً تاماً ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد: ٢٢] (أزلي عن علم الله لما كان وما سيكون غير ملزم ولكنه تقدير علمي دقيق) ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] ، هذا التطابق بين علم الله الأزلي ونتائج المعالجة على الواقع مع عدم المس بحرية الاختيار ، هذا التطابق العظيم الذي لا يمر على صغيرة ولا كبيرة إلا ويدخلها في حساباته ، خاصة وأنها جميعاً من المتغيرات وليست من الثوابت ، هذا على الله يسير لعظمة الله العظيم ولقدرته ودقته.

- وعلم الله تعالى الأزلي بخواتيم الأعمال وقد حجبه عن الخلق هو عين الرحمة والعدل الإلهي؛ لأنه يجعل المؤمن على وَجَلٍ من سوء الخاتمة ، والعاصي على أمل بحسن الخاتمة فيجتهد المؤمن؛ ليحافظ على ما أعطاه الله تعالى من نعمة الإيمان ويطلب من الله التثبيت (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) ، وبما أن باب التوبة مفتوح لمن جنح مهما كان جنوحه (عبدى لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم أتيتني تائباً غفرت لك ولا أبالي) ، فهذا يدفع بالعاصي في كل لحظة إلى العودة إلى ربه والتوبة والإنابة غير يائس أو قانط من رحمة ربه ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً...﴾ [الزمر: ٥٣].

وحقيقة الإيمان أن يعيش المرء بين الخوف من سوء المنقلب بعد ما وصل إليه من العبادة فيركن إلى الغرور ، وبين الرجاء برحمة الله بقبول توبته وعفوه وحسن الختام بعد تفريطه .

- الهداية :

وهي نوعان :

أ - هداية الدلالة ، وهي التي أثبتها الله تعالى لرسوله ﷺ ولأوليائه الذين على أثره بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، و ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

ب - هداية التوفيق والطاعة لله تعالى ، فهذه له وحده تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] ، فالذي استجاب لدعوة الله ورسوله ﷺ يهديه الله ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم ﴾ [المائدة : ١٦] ، وهي التي يسألها العبد ربه ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

- العناية الإلهية : يقرب الله عباده في العناية من طور إلى طور كما خلقهم أطواراً ، كذلك هو معهم بالعناية أطواراً ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

فإذا استخدم العبد الإمكانيات المعطاة له للمهمة المكلف بها (عبادة الله) ؛ صار بأدوات السمع يسمع وبأدوات النظر يبصر وبقلبه يعي الأمور .

فإذا استفاد من الآيات التي عرضت عليه بالنظر والاستدلال كانت العناية الإلهية تحيطه فتفتح له سمعاً إضافياً ورؤية زائدة وفهماً أعلى .

فهذا سليمان عليه السلام سمع كلام النملة والهدهد .

وهذا يعقوب عليه السلام يشم رائحة يوسف من مسافة آلاف الأميال .

وهكذا فالمؤمن ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله .

وأما إذا وقف الإنسان بحواسه ومداركه عند الاستمتاع المجرد دون النظر والبحث وكان عبداً لشهواته متعصباً لها ، فهذا الإنسان يطمس على قلبه وحواسه ، ففي مرتبة السمع يسمع الألفاظ ولكن لا يتجاوزها قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ [محمد: ١٦] .

وفي مرتبة الرؤية قال الله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] ، لم ينفذوا من النظر إلى ما وراءه .

وكذلك في مرتبة الوعي والفهم : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] .

فالسلاح إذا كان في يد جاهلة يضر بصاحبه ، والله تعالى يسلب الكفرة خاصية الحواس ؛ حتى لا يستخدموها في غير ما خلقت لأجله ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] .

وإكرام الله تعالى لعبده المؤمن أن يلهمه الصواب ويفتح بصيرته ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ٨] ، وكان من دعاء الرسول عليه السلام : « اللهم ألهمني رشدي » .

فإذا كان العبد منشغلاً عن الله فيلتهم إبليس قلبه بالوساوس «إن الشيطان ليضع خطمه على قلب ابن آدم... ينتظر غفلته» .

والله تعالى مع عباده كلهم : بالتأييد والتسديد والهداية للمؤمنين ، ولغير المؤمنين بالتنبيه والتوعية والعناية فيسمح للشيطان بالوساوس لهم ويعالجهم في تسليطه عليهم في غفلتهم ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] .

- يكون البيان من الله تعالى بالآيات القرآنية المتلوة وبيان رسول الله ﷺ ﴿ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴾ ، والبيان بالآيات التكوينية (سنته في العاصين والمتقين) ، والبيان بالآيات الكونية الدالة على أسمائه الحسنی وقدراته ، وهذا البيان العام للطائعين والعاصين .

- أما البيان الخاص منه تعالى فهو للمؤمنين بالتوفيق والاجتباء وقطع أسباب الخذلان ، مثلها: عندما أبان الله للخليفة الراشد عمر رضي الله عنه

عن موقع الأعداء فصاح لسارية أمير الجيش أن يأخذ حذره ويحتمي بالجبل: (يا سارية الجبل الجبل).

وقد ورد في الحديث: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به ونظره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها... ولئن سألني لأعطينه...»، هكذا عناية ربنا بعباده المؤمنين إلى السداد والرشاد.

وتخلي ربنا عن العصاة للشيطان؛ ليرديهم المهالك فيتبينوا خطأ سلوكهم ويفكروا بالسلامة، ويصلوا إلى النقطة التي يجب أن يبدأوا منها وهي العبودية لله ويدخل تأليه الله تعالى في قلوبهم فيتخلوا عن شياطينهم لتسلمهم عناية الله بالسداد والرشاد.

- فدخلهم في مرحلة الابتلاءات ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وذلك ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]، فالله يعلم ولكن ليعلم العبد نفسه أنه من الصادقين أو من الذين لا يزال في نفوسهم شكوك ونقص معرفة بالله تعالى، وبالتالي فتأليه الله عنده ليس في مستوى العبودية.

- والفتن التي يتلي الله بها عباده قد تكون مما تشتهي نفسه وتطلبه، فإذا ارتاح بها ونسي المنعم ولم يقر بشكره كان من الجاهلين ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، ويعتبر ذلك عطاء من الله له؛ لأنه يحبه وأنه على الحق فهو يخدع نفسه، وأما إذا كان الابتلاء من النوع الذي لا تشتهي النفس بل تكرهه... فما حاله؟ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

والجواب في كلتا الحالتين هو كلاً؛ فليس العطاء تكريماً لحاله ومكافأة له، وليس المنع والإقتار هو إهانة له، بل الحقيقة هي وسيلة لمعرفة الإنسان نفسه هل هو من الشاكرين في العطاء؟ والشكر للمنعم يظهر أثره في عباد الله معاونة وإحساناً، أم هو من الصابرين على المنع والإقتار؟

وهذا يجب أن يظهر أثره في المؤمن ، حسن خلق ، وعدم شكوى ،
ورضا ، وطمع في الأجر والثواب .

وهكذا ترتفع وتيرة الابتلاءات كلما ازداد العبد معرفة بالله وعبودية له
حتى تخرج من قلبه الدنيا ومحبة العاجلة ، وتستقر في قلبه محبة الله
وثواب الآخرة .

والحقيقة أن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ، وهما يسيران جنباً إلى
جنب مع المؤمن ، ولا حجة لأحد من الخلق على ربه ، فقد مرره الله في
عمره بسلسلة من الابتلاءات وقدم له من النذر ما يتذكر فيه من تَذَكُّرٍ .
لذا فالجميع يوم القيامة - أهل الجنة وأهل النار - بعد كشف الغطاء
ورؤية نعم الله عليهم ، وعنايته بهم حالهم يقول : الحمد لله رب العالمين .

* * *

علم الغيب

الله عالم الغيب والقرآن يؤكد ذلك ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

فما يقع في هذا الكون قد علمه الله من الأزل وسجله في كتاب وما يجري الآن من مقادير يخرج عند توفر شرائطه ، وتطابق ذلك العلم الأزلي مع ما يجري الآن من معالجات للنفس الإنسانية حسب أحوالها ، كل ذلك يدل على العظمة الإلهية ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢] مع وجود حرية الاختيار.

وهذا التطابق بين علم الله الأزلي وما يعيشه الإنسان وهو متمتع بحرية الاختيار هو الذي استعصى فهمه على من قصرت أفهامهم ؛ لأنه : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

- ومن قال : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، ردّ عليهم ربنا : ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ، والظن أكذب الحديث ، فقد ذكروا ذلك ؛ ليبرروا شركهم ويغطوا جهلهم وقد تنكروا لما حباهم الله من حرية الاختيار فلم يقولوا إنا مأمورون بالإيمان فاخترنا الشرك ، وهم إلى الآن قادرون على تغيير سلوكهم وإنشاء توبة بحرية اختيارهم ، ثم كيف علموا أن الله كتبهم في عداد أهل النار (المشركين)؟! ﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦] ، أو يدعون أن مشيئة الله لهم بالشرك ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥].

لقد حاجَّ آدم عليه السلام موسى عليه السلام بأن نزوله من الجنة كان مقدراً قبل أن يخلقه الله ويسكن الجنة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ، فنزوله من الجنة إلى الأرض قدر الله ، وعلى الإنسان الرضا بالقدر أما موضوع معصية آدم لربه وأكله من الشجرة فلا حجة لآدم عليه السلام ؛ لأن على المذنب أن يتوب وهذا ما فعله آدم عليه السلام ، فلم يحتج بالمعصية أنها قدر ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ﴾ [غافر: ٥٥] .

فالصبر على قدر الله ، والاستغفار من الذنب هو العبودية ، والحكمة في ذلك قوله تعالى : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَآفَاتِكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآءَاتِكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] .

فإذا شهد العبد نفوذ الأقدار فيه وعجز نفسه وافتقاره لربه وعدم استغنائه عن عصمته ، وكان مع الله في كل حال لا مع نفسه فلا يأتي منه في هذه الحالة وقوع ذنوب ، أما إذا بقي مع نفسه واستولى عليه حكم النفس فحجب عن ربه دخل في المعاصي .

ففضاء الله وهو فعل قائم بذات الله تعالى خير كله وعدل كله ، وأما المقضي وهو المفعول المنفصل فهو قسم يرضى منه ، وقسم لا يرضى منه ، مثال ذلك قتل النفس المحرمة فمن حيث أجل المقتول يرضى به قضاء وقدرًا من الله تعالى ، ومن حيث هو صادر عن القاتل ، باشره بنفسه وكعمل كسبه وصدر عنه باختياره وعصى به ربه ، نسخته ولا يرضى به .

- فالله تعالى له في كل موجود نعمة ، وهذه النعمة تصير بلاء وكل بلاء يحتاج إلى صبر ، وكل نعمة تحتاج إلى شكر ، فخلق الله نعمة وحكمة لكل خلقه أو لبعضهم نعمة ول بعضهم بلاء وكل ذلك لحكمة ، فتجتمع في العبد وظيفتا الشكر على النعمة والصبر على الابتلاء ، وكل حالة لا توصف بالبلاء المطلق أو بالنعمة المطلقة .

فليس كل بلاء مطلوباً الصبر عليه ، كال كفر مثلاً إذ الكافر لا يعرف أنه

مُبتلىّ بالكفر ، كالمريض الذي لا يعرف أن به مرضاً خبيثاً لا يمكن كشفه إلا بكواشف إذا كان غير مؤلم له . أما المؤمن العاصي فيعرف أن به علة عليه التخلص منها لشعوره بها .

فكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فليس مأموراً بالصبر عليه كالجوع والعطش وتسلط الأعداء واقتراف المعاصي .

أمثلة من الغايات والحكم في معالجة ربنا للأنفس الإنسانية :

- إن تكذيب موسى - عليه السلام - من قبل فرعون شاءه ربنا وسمح به ؛ لأنه كان سبباً لإيمان السحرة وسقوط ألوهية فرعون من قلوب شعب مصر وبني إسرائيل ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ﴾ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢] .

- تلفظ فرعون بكلمة الإيمان ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ، ومع أنه جاء في وقت لا تنفع فيه التوبة ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١] إلا أنه يثبت حرية الاختيار التي أكرم الله بها عباده ، وأن العاصي قادر على التوبة التي يحبها ربنا ويقبلها ما لم تصل الغرغرة .

- إن القوم الذين حقّ عليهم العذاب قادرون على التوبة والرجوع وأن يكشف الله عنهم العذاب عندئذ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيحْنَهَا إِلَّا قَوْمَ يَؤُسُّ لَمَآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ [يونس: ٩٨] .

- فكثير من الذين عاندوا الدعوة وحاربوا رسول الله ﷺ انقلبوا بعد ما وقعوا في الأسر لدى المسلمين أو سمح لهم بالتعرف على أحوال المسلمين أسلموا وتابوا وصاروا دعاة ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] كثمامة والعباس وخالد بن الوليد و . . رضي الله عنهم جميعاً .

إن آيات الله التي فيها (لعلهم يرجعون ، لعلهم يتقون ، لعلهم يؤمنون) هي دليل قاطع على أن المعالجة من الله تعالى لها أهداف تصب في مصلحة

الإنسان إذا قبل الدواء ، وهذا يتنافى مع الجبر الذي يقول به الزنادقة والمتحذلقون.

- الله تعالى أعطى الناس فطرة وعقولا مختلفة وشهوات ، وترك الشيطان يوسوس لهم ويزين لهم الشهوات وسوء الأعمال ، وأعطاهم حرية الاختيار ، وكتب علي نفسه الرحمة (أن يرحمهم بما يسوق لهم من مؤثرات وحوافز وعلاجات عليهم يسيرون بالنور فيصرون الحق ويتركون الظلمات التي سترديهم في المهالك ، ويعالجهم كأفراد وكجماعات ويؤثر بعضهم ببعض ويتأثر بعضهم ببعض).

- فالثابت فطرتهم عنده تعالى وإمكاناتهم وآجالهم وأرزاقهم وظروف حياتهم ومؤهلاتهم ، أما المتغير الذي فيه الإعجاز الإلهي وهو الغيب الذي لا يعلمه إلا هو ، ماذا سيختارون من المعالجات في كل مرحلة ، وتأثرهم بوساوس الشياطين (شياطين الإنس والجن) ، ودرجة تأثرهم بالنور الإلهي وما يسوق لهم الله من علاجات ، وتأثرهم بدعوة الرسل والهدي النبوي ، ثم إنهاء حياتهم بما يستحقونه من الوصول للجنة أو النار.

فتعظيم الله تعالى لتعظيم علمه بالغيب.

* * *